تفسير سورةُ الأنْبياءِ
من آية (51) إلى آية (70)
اللقاء الخامس

المعنى الإجمالي من آية (41) إلى آية (50):

يقولُ الله تعالى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن هؤلاءِ المشركينَ: ولقد استُهزِئَ برُسُلٍ مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- فنزل بالذين كانوا يَستَهزِئونَ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

قل -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحفَظُكم ويَحرُسُكم في لَيلِكم أو نَهارِكم مِن الرَّحمنِ؟! بل هم عن ذِكرِ ربِّهم لاهُونَ غافِلونَ!

ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ تَمنَعُهم مِن عذابِنا؟ إنَّ آلِهَتهم لا يَستَطيعونَ أن يَنصُروا أنفُسَهم، فكيف يَنصُرونَ عابدِيهم؟! وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا.

لقد اغتَرَّ الكُفَّارُ وآباؤُهم بالإمهالِ؛ لِمَا رأَوْهُ مِنَ الأموالِ والبَنينَ وطُولِ الأعمارِ، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، واغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، فحمَلَهم ذلك على الكُفرِ والطُّغيانِ. أفلا يرى هؤلاء الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم. أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المنتَصِرونَ عليك -يا محمَّدُ- وعلى أتباعِك من المؤمنينَ؟! بل هم المغلوبونَ!

قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: ما أُخَوِّفُكم مِن العَذابِ إلَّا بوَحيٍ مِن اللهِ، وهو القُرآنُ. ولكِنَّ الكُفَّارَ لا يَسمَعونَ إلى القُرآنِ، فلا ينتَفِعونَ به، كأنَّهم صُمٌّ حين يُخوَّفونَ بآياتِه.

ولو أصاب الكُفَّارَ أقَلُّ شَيءٍ مِن عَذابِ اللهِ ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ!

ويضَعُ اللهُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند الحسابِ، ولا يَظلِمُ نَفسًا شيئًا، وإن كان هذا العمَلُ مِن خيرٍ أو شَرٍّ قدْرَ ذَرَّةٍ جاء الله بها لتُوزَنَ في الميزانِ، وكفى بالله مُحصِيًا أعمالَ عِبادِه، ومُجازيًا لهم عليها.

يقولُ اللهُ تعالى: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والتوراةَ مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها؛ وتذكيرًا ومَوعِظةً للمُتَّقينَ، الذين يخافُونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم، وهم من القيامةِ خائِفونَ وَجِلونَ.

وهذا القُرآنُ ذِكْرٌ لِمن تذكَّرَ به، وعَمِلَ بأوامِرِه واجتَنَب نواهيَه، كثيرُ الخَيرِ، عَظيمُ النَّفعِ، أنزَلْناه على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أفتُنكِرونَه وهو في غايةِ الظُّهورِ والبَيانِ؟!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿51﴾

مناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: أُعقِبَت قِصَّةُ موسى وهارونَ بقِصَّةِ إبراهيمَ فيما أُوحيَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مقاومةِ الشِّركِ ووُضوحِ الحُجَّةِ على بُطلانِه؛ لأنَّ إبراهيمَ كان هو المَثَلَ الأوَّلَ قبل مجيءِ الإسلامِ في مُقاوَمةِ الشِّركِ؛ إذ قاوَمَه بالحُجَّةِ وبالقُوَّةِ وبإعلانِ التوحيدِ، فكانت قِصَّةُ إبراهيمَ مع قَومِه شاهِدًا على بُطلانِ الشِّركِ الذي كان مُماثِلًا لحالِ المشركِينَ بمكَّةَ الذين جاء محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقَطعِ دابِرِه.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) أي: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلُ، ووفَّقْناه للحَقِّ، وأنقَذْناه مِن بينِ قَومِه وأهلِ بَيتِه، مِن عِبادةِ الأوثانِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: مِن قبلِ نزولِ التوراةِ، وإيتائِهما موسى وهارونَ عليهما السلامُ.

قال ابن اكثير: مِن قبلِ البلوغِ، وهو صغيرٌ.

قال ابن عطية: (الرُّشدُ عامٌّ في هدايتِه إلى رَفضِ الأصنامِ، وفي هدايتِه في أمرِ الكوكَبِ والشَّمسِ والقمَرِ، وغيرِ ذلك من النبُوَّةِ فما دونَها، وقال بعضُهم: معناه وُفِّق للخيرِ صَغيرًا. وهذا كُلُّه متقاربٌ).

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أي: وآتَيناه رُشدًا عَظيمًا على عِلمٍ مِنَّا بأنَّه أهلٌ لذلك الرُّشدِ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (وهذا العِلمُ الإلهيُّ مُتعَلِّقٌ بالنفسيَّةِ العظيمةِ التي كان بها محَلَّ ثَناءِ اللهِ تعالى عليه في مواضِعَ كَثيرةٍ مِن قرآنِه، أي: عَلِمَ مِن سَريرتِه صِفاتٍ قد رَضِيَها وأحمَدَها، فاستأهَلَ بها اتخاذَه خَليلًا، وهذا كقَولِه تعالى: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [الدخان: 32].

قال ابن عاشور: فيه إشارةٌ إلى أنَّ فِعْلَه سُبحانَه وتعالى باختيارٍ وحِكمةٍ، وأنَّه عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ.

فالله أعلم بمن هو أهل لهداه، فيُنعم عليه بذلك، ويصطفيه ويختاره: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) [الأنعام: 124].

فليس كل أحد أهلاً لتحمل الرسالة والنبوة، ولذلك الله اختار من البشر أُناساً معينين، جعلهم محلاً للنبوة، وليس كل البشر يصلحون للنبوة، فكذلك الله اختار من خلقه من يصلح للهداية، وليس كلهم يصلحون للهداية، فمن سلك طريق الهداية اهتدى، ومن سلك طريق الضلالة ضل، فهدايته جل وعلا لهؤلاء العباد إنما تقوم على علمه وحكمته: (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) [إبراهيم: 27]. وقال: (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) [الشورى: 13].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ﴿52﴾

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) أي: إذ قال إبراهيمُ لأبيه آزَرَ وقَومِه المشرِكينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنَّكم مثَّلْتُموها ونحتُّموها بأيديكم على صُوَرِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتونَ. موسوعة التفسير

والإشارةُ بـ هَذِهِ إلى التَّماثيلِ؛ لزِيادةِ كَشْفِ معناها الدَّالِّ على انحطاطِها عن رُتْبةِ الأُلوهيَّةِ، والتَّعبيرُ عنها بالتَّماثيلِ يَسلُبُ عنها الاستقلالَ الذَّاتيَّ، ففي قولِه: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ تحقيرٌ لها، وتصغيرٌ لشأنِها، وتجاهلٌ بها، معَ علمِه بها، وبتعظيمِهم لها. الدرر السنية

كما قال تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [الصافات: 85 - 87].

وقال ابن تيمية: العُكوفُ والمجاورةُ عند شَجَرةٍ أو حَجَرٍ؛ تِمثالٍ أو غيرِ تِمثالٍ، أو العُكوفُ والمجاورةُ عند قبرِ نَبيٍّ أو غيرِ نبيٍّ، أو مَقامِ نبيٍّ أو غيرِ نَبيٍّ- ليس هذا مِن دينِ المسلِمينَ، بل هو مِن جِنسِ دِينِ المشرِكينَ الذين أخبَرَ الله عنهم بما ذكَرَه في كتابه.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ﴿53﴾

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) أي: قال المشرِكونَ لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَ هذه الأوثانَ؛ فنحن نعبُدُها مِثلَهم. موسوعة التفسير

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿54﴾

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي: قال إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم جميعًا في ذهابٍ عن سبيلِ الحَقِّ واضحٍ بيِّنٍ؛ بعِبادتِكم جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ. موسوعة التفسير

قال ابن عادل: فيه أنَّ الباطِلَ لا يصيرُ حَقًّا بكَثرةِ المتمَسِّكينَ به.

أن هؤلاء في اتباع آبائهم مثل البهائم التي تستجيب للناعق وهي لا تسمع إلا صوتاً ولا تفهم دعاءً، ولا نداءً؛ لا تسمع شيئاً تعقله، وتعرف فائدته، ومضرة مخالفته.

فإن الله قد ذم المشركين المقلدين لآبائهم في الكفر والطغيان من غير دليل ولا برهان، وعاب عليهم صنيعهم.

مما يزين به الباطل والمعاصي أن يقال: "إن أكثر الناس يفعلون تلكم المعصية"، فحينما يقال لفلان من الناس لمَ تفعل هذه المعصية؟ يقول: "لست وحدي كثيرون يفعلون ذلك"! والله قال:(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[الأعراف: 187]، (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)[العنكبوت: 63]، يقول الله -تعالى-: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)[الأنعام: 116].

✉الكثرة ليست ميزانا يوزن به الحق والباطل؛ روى البخاري ومسلم عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ"، لماذا هل يقال إنهم ليسوا على حق؛ معاذ الله! فهم الصادقون الصالحون الناصحون، لكن حينما تشتد غربة الدين يقل الصالحون، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"، فَقِيلَ: مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أُنَاسٌ صَالِحُونَ، فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ"(رواه أحمد وصححه الألباني).

📄قال ابن القيم: "عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين ".

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾﴿55﴾

(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) أي: قال قَومُ إبراهيمَ: أجِئْتَنا –يا إبراهيمُ– بالحَقِّ المطابِقِ للواقِعِ فيما تقولُ، أمْ أنَّ كلامَكَ كلامُ مازِحٍ هازِلٍ مُستَهزِئٍ. موسوعة التفسير

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾﴿56﴾

(قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ) أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل جِئتُكم بالحَقِّ لا باللَّعِبِ؛ فرَبُّكم رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي أوجَدَهنَّ وأبدَعَهنَّ وما فيهنَّ مِن جَميعِ المخلوقاتِ. موسوعة التفسير

(وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: وأنا على ذلك الأمرِ البيِّنِ مِن الشَّاهِدينَ بعِلمٍ وحُجَّةٍ. موسوعة التفسير

📣قصة خليل الله إبراهيم –عليه السلام– قصة عظيمة؛ حيث أنكر على قومه ووالده عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فلم يستجيبوا لدعائه، ولاقى منهم أذى كثيرًا.

✉كان إبراهيم –عليه السلام– ذكي الفؤاد، صائب الرأي، ثاقب الفكر، فرأى أن الحجة القولية والبرهان اللفظي لم يعد يجدي معهم، فأراد أن يوقف قومه على صدق دعوته وحقيقتها، علّهم يتوبون إلى رشدهم ويرجعون عن غيّهم، فاستدرجهم إلى مجادلته، واستنزلهم إلى محادثة، فسألهم: ماذا تعبدون؟! فأفاضوا الحديث في شأن أصنامهم، وأطالوا في جوابهم، معزين بعبادتها وقالوا: (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) [الشعراء:71] أي خاضعين.

✉كان إبراهيم ملهمًا في سؤاله، موفقًا في استفساره، فهو كالطبيب حاول أن يتحسس الداء ليصف الدواء، وهو يريد أن يوضح بطلان عملهم وإلزامهم الحجة، وحينئذ لا يجدون مناصًا من اتباعه وطاعته، عند ذلك أخذ ينقد زائف آرائهم ويبيّن فاسد اعتقادهم، فقال: هل يسمعونكم إذا دعوتموهم، أو يبصرونكم، وهل ينفعونكم أو يضرونكم؟! حقًا إنه كيد الشيطان وما أعظمه، حيث استدرجهم إلى أن

يقلدوا آباءهم في الكفر وعبادة الأصنام والشرك بالله، وزين لهم عبادة التماثيل، وما أشد جهلهم حين اعتقدوا أنهم على حق، بل جادلوا من أجل نصرة مذهبهم، وما أوهى ما نطقوا به وما أجابوا به، فقالوا له: (وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) [الأنبياء:53]

✉فقد أقروا بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تملك ضرًّا ولا نفعًا، واعترفوا بأنهم ما عبدوها إلا اقتداءً بأسلافهم، واتباعًا لآبائهم، فكانوا بذلك عن النظر الصحيح نائين، وعن التفكير السليم بعيدين، فقال لهم إبراهيم: (لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الأنبياء:54] فقالوا له: أتنتقص آلهتنا وتسب أصنامنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟! فقال لهم إبراهيم: بل أنا جاد لا هازل، قد جئتكم بالدين القويم، وأرسلت إليكم بالهدى دين الحق المبين، فإن ربكم المستحق للعبادة هو رب السماوات والأرض ومدبر شؤونهما، أما هذه الأصنام فهي حجارة صماء لا تنفع ولا تضر، فعليكم أن تجتنبوا عبادتها، واحذروا فتنة الشيطان وإغواءه، وفكروا بعقولكم، وانظروا بأبصاركم لعلكم تهتدون، وقد سبقتكم في عدم عبادتها فلم تضرني شيئًا، ثم أظهر لهم بديع صنع الله الذي يخلق ويهدي ويرزق ويشفي ويميت ويحيي ويغفر الذنوب فقال: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [الشعراء 77 : 82]

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾﴿57﴾

✍مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال السعدي: لَمَّا بَيَّنَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنَّ أصنامَ قَومِه ليس لها من التَّدبيرِ شَيءٌ، أراد أن يُرِيَهم بالفِعلِ عَجْزَها، وعَدَمَ انتِصارِها، ولِيَكيدَ كيدًا يَحصُلُ به إقرارُهم بذلك.

قال ابن عاشور: وأيضًا فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ انتقَلَ مِن تغييرِ المنكَرِ بالقَولِ إلى تغييرِه باليدِ.

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) أي: قال إبراهيمُ: ووالله لأحتالَنَّ على أصنامِكم فأُلحِقُ بها الضَّرَرَ بعد أن تَنصَرِفوا عنها. موسوعة التفسير

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾﴿58﴾

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) أي: فكسَّر إبراهيمُ الأصنامَ، وجعَلَها قِطَعًا مُهَشَّمةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا عِندَهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم، فيتبيَّنَ لهم عجْزُه. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثير: (قولُه: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ذكروا أنَّه وضع القَدُومَ في يدِ كبيرِهم؛ لعَلَّهم يعتَقِدونَ أنَّه هو الذي غار لنفْسِه، وأنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنامُ الصِّغارُ، فكَسَّرَها).

كما قال تعالى: (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) [الصافات: 90 – 93].

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾﴿59﴾

(قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) أي: فلمَّا رأى المشرِكونَ حُطامَ أصنامِهم قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهتِنا؟ إنَّه لَمِنَ الظَّالمينَ بصَنيعِه هذا؛ حيثُ فعَل بها ما لا ينبغي له فِعلُه، ووضَعَ الإهانةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ فإنَّ الآلهةَ حَقُّها الإكرامُ، لا الإهانةُ والانتِقامُ. موسوعة التفسير

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾﴿60﴾

(قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) أي: قالوا: سَمِعْنا شابًّا يذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ يُسَمَّى إبراهيمَ، ومَنْ هذا شأنُه لا بدَّ أن يكونَ هو الذي كَسَّرَها. موسوعة التفسير

قال ابن جرير: (قال الذين سمِعوه يقولُ: وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ...).

ولما لم تنفعهم الحجة وأعرضوا عن دعوته ورأى أنهم متعلقون بأوهامهم، متمسكون بعبادة أصنامهم، بيّت الشر لها، وأقسم ليكيدنها حتى يروا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تدفع الأذى عن نفسها فتدرأه عنهم.

وكان لهم عيد يقيمونه في كل عام، يقضون أيامه خارج المدينة يهرعون إليه بعد أن يضعوا طعامًا كثيرًا في بيت العبادة، حتى إذا ما رجعوا من عيدهم أكلوه فرحين وأقبلوا إليه مغبطين، وقد باركته الآلهة وأضفت عليه الخير، ولما هموا بالذهاب إلى عيدهم طلبوا أن يرافقهم، فأبى وامتنع، وقد عقد العزم على أن يهدم ويكسّر معبوداتهم، وادعى العلة وتظاهر بالمرض والسقم، ولم تكن به علة ولا مرض، ولكنه كان سقيم النفس كاسف البال، ينقطع فؤاده حزنًا على إشراك قومه لأنهم لم يستجيبوا لدعوته.

ولما كانوا يخشون الداء ويهابون الوباء تولوا عنه ولم يستمسكوا بدعوته، بل أظهروا الرضا عن تخلفه والاقتناع بحجته، وخرجوا إلى عيدهم مسرورين، فلما خلت المدينة منهم ذهب إلى أصنامهم، ودخل إلى بيت عبادتهم، فوجده باحة قد امتلأت بالتماثيل، وانتشرت في أرجائه الأصنام، ورأى الطعام متراكمًا عندها، فخاطبها متهكمًا بها محتقرًا لشأنها: ألا تأكلون؟! فلم يجيبوه، فقال: (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)، أي لا تتكلمون، وأنى للحجارة أن تتكلم!! وللخشب المسندة أن تعقل!! بعد ذلك أخذ يلطمها بيده ويركلها برجله، ثم غضب لربه واشتد غضبه، فأخذ فأسًا وأخذ يكسرها ويحطمها، وما زال بها حتى صيّرها حطامًا إلا كبيرهم، فإنه أبقى عليه ليرجعوا إليه ويسألوه عمن انتهك حرمة بيتهم وكسر أصنامهم، حتى إذا استبانوا أنها لا تدافع عن نفسها ممن أرادها بسوء، ثابوا إلى رشدهم ورجعوا عن مكابرتهم.

تركها حجارة مبعثرة ومتناثرة وانصرف عنها وهو مطمئن البال قرير العين؛ لاستئصاله جذور الشر وطمسه معالم الشرك، وأقام يرقب ما يبدو منهم، وينتظر أثر فعلته في نفوسهم، وأخذ العدة مما قد يرمونه به أو يجادلونه فيه.

ولما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حل بمعبوداتهم، بهتوا لهول ما رأوا، وجدوا آلهتهم مهشمة مكسرة، وتساءلوا: (مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) [الأنبياء:59] عند ذلك قال قائلهم: سمعنا فتى يذكر

آلهتنا ويعيب عبادتنا ويزدريها ويحتقرها يقال له: إبراهيم، فهو المجترئ عليها والمحطِّم لها، فاعتزموا أن يوقعوا به أشد العقاب لما ارتكب من جرم، وثارت ثائرة القوم ونادوا بأن يأتوا به على أعين الناس ليشهدوا عليه بمقالته، ويروا ما يحل به من القصاص.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾﴿61﴾

(قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) أي: قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبَعضٍ: فأحضِروا إبراهيمَ على مرأًى مِن النَّاسِ؛ لعلَّهم يَشهَدونَ عُقوبَتَنا له. موسوعة التفسير

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾﴿62﴾

(قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) أي: فلمَّا أُحضِرَ إبراهيمُ قال له قَومُه: أأنت الذي حطَّمتَ أصنامَنا التي نَعبُدُها يا إبراهيمُ. موسوعة التفسير

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾﴿63﴾

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل الذي فعَل ذلك هذا الصَّنَمُ الكبيرُ، فاسألوا الأصنامَ المكَسَّرةَ والصَّنَمَ الكبيرَ الذي لم يُكَسَّرْ؛ لِيُخبِروكم بمن حطَّمَها إن كانوا يَستطيعونَ الكلامَ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وهذا الكلامُ مِن إبراهيمَ المقصِدُ منه إلزامُ الخَصمِ وإقامةُ الحُجَّةِ عليه؛ ولهذا قال: (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) وأراد الأصنامَ المكَسَّرةَ اسألُوها لمَ كُسِّرَت؟ والصَّنَمَ الذي لم يُكسَّرْ، اسألُوه: لأيِّ شَيءٍ كَسَّرَها؟).

وقال ابنُ الجوزي: (اختلف العُلَماءُ في وجهِ هذا القولِ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ على قولينِ: أحدهما: أنَّه وإن كان في صورةِ الكَذِبِ إلَّا أنَّ المرادَ به التَّنبيهُ على أنَّ مَن لا قُدرةَ له لا يَصلُحُ أن يكونَ إلهًا...، ومِثلُ هذا لا تُسَمِّيه العَرَبُ كَذِبًا. والثاني: أنَّه من معاريضِ الكلامِ).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثَلاثَ كَذِباتٍ: ثِنتينِ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: إِنِّي سَقِيمٌ [الصافات: 89]، وقولُه: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا [الأنبياء: 63]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ...)) الحديث

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ النَّبيَّ إبراهيمَ عليْهِ السَّلامُ لم يَكذِبْ إلَّا ثَلاثَ كَذَباتٍ، ثمَّ يُخبِرُ بتَفاصيلِ تلك الكَذَباتِ فيَقولُ: «ثِنْتَينِ مِنهنَّ في ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ»، وإنَّما قال عن ثِنتَينِ فقطْ: «إنَّها في ذاتِ اللهِ»؛ لأنَّ الثَّالِثةَ وإنْ كانتْ في ذاتِ اللهِ لكنَّ فيها حَظًّا لنَفسِهِ، وأُطلِقَ الكذِبُ على هذِه الأمورِ؛ لكونِهِ قالَ كلامًا يَظُنُّهُ السَّامِعُ كَذِبًا، لكنَّ حَقيقةَ الأمرِ أنَّهُ لم يَكُنْ كذلِكَ؛ لأنَّهُ مِن المعاريضِ، فليسَ بكَذِبٍ مَحضٍ.

❍أمَّا الأُولى: فعِندما طلَبَ منهُ قَومُهُ أنْ يَخرُجَ معَهمْ إلى عِيدِهِمْ، وأرادَ أنْ يَكسِرَ آلِهَتَهُم، فقالَ لهمْ: {إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: 89]؛ ليَظُنُّوا أنَّه مَريضٌ مُصابٌ، فيَترُكوه، وأَرادَ أنَّ قَلْبَهُ مَريضٌ ممَّا يَصنَعونَ مِن الكُفرِ، أو غيرِ ذلكَ.

❍وأمَّا الثانيةُ: فعِندما حطَّمَ الأَصنامَ ورَجَعوا واتَّهموهُ بِهذا الفعلِ، فقالَ: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [الأنبياء: 63]، أرادَ أنَّهُ سَببٌ في الفِعلِ لا هُو الفاعلُ نفْسُه؛ لأنَّهُ لَمَّا وَجَدَها مُتراصَّةً حَوْلَهُ تَعظيمًا لهُ، حطَّمها كلَّها إمْعانًا في إذْلالِهِ؛ وقد قال ذلك ليُعمِلوا عُقولَهم فيَعرِفوا أنَّها أحجارٌ لا تَستطيعُ فِعلَ شَيءٍ.

❍وأمَّا الثَّالِثةُ: فعِندما قدِمَ هُوَ وزَوجَتُه سارةُ أرضًا كانَ يَحكُمُها جبَّارٌ مِن الجَبابِرةِ، فقيلَ لهذا الجَبَّارِ: إنَّ في أرضِكَ رجُلًا معَه امرأةٌ مِن أحسنِ النَّاسِ، أي: مِن أَجمَلِهِمْ، فأَرسَلَ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ فَسألَه عنْها، فَقالَ: إنَّها أُخْتي، أرادَ أنَّها أُختُه في اللهِ وفي الدِّينِ والإسلامِ؛ إذْ لوْ قَالَ زَوجتي، لَقَتلَهُ الفاجِرُ ليَتخَلَّصَ مِنه، وقيلَ: لأَلزَمَه بِطلاقِها، ثمَّ رجَعَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى زَوْجتِهِ، فَقالَ لها: إنَّهُ ليسَ على وَجْهِ الأَرضِ مُؤمنٌ غَيري وغَيرُكِ، أي: الأرضُ التي هُمْ بِها، ثمَّ قالَ لَها: وقدْ سألَني هَذا الجَبَّارُ فأَخبَرْتُه أنَّكِ أُختي، فلا تُكَذِّبيني فتقُولي: هُو زَوجي، فأَرسَلَ إليها هذا الجَبَّارُ، فلمَّا دَخَلَتْ عَليهِ ورأَى حُسْنَها غَلَبَه الميلُ إليها، فذَهَبَ يُمسِكُها بيَدِهِ، «فأُخِذَ»، أي: اختَنقَ حتَّى ركَضَ بِرِجلِه كأنَّهُ مَصروعٌ، فقالَ لها: ادْعي اللهَ لي وَلا أضُرُّكِ، فدَعتِ اللهَ فقَالَت -كما في صَحيحِ البُخاريِّ-: «اللَّهُمَّ إنْ يَمُتْ يَقولوا: هيَ قَتلَتْه»، فاستجابَ اللهُ لها فعادَ سَليمًا، غيرَ أنَّه غَلَبَتْه شَهوتُه، فَحاوَلَ أنْ يُمسِكَها مرَّةً ثانِيةً، فأُخِذَ أشدَّ مِن المرَّةِ الأُولى، فقالَ: ادْعي اللهَ لي وَلا أضُرُّكِ، فدَعتْ فأُطلِقَ، فلمَّا يَئِسَ منها دَعا بَعضَ حَجَبتِهِ وخدَمِهِ فقالَ: «إنَّكمْ لَمْ تَأْتوني بإنسانٍ، إنَّما أَتَيْتمُوني بِشَيطانٍ!» حيثُ لم يَقدِرْ عَليها، بلْ صُرِعَ كلَّما اقْتَرَبَ مِنها، ثمَّ لَمَّا رَأى مِنها ذلكَ أَعْطاها هاجَرَ خادِمةً لها، فرَجَعَت سارةُ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فوَجدَتْهُ يُصلِّي، «فأَوْمأَ بِيدِهِ»، أيْ: أَشارَ إليها، «مَهْيَا»، أي: ما شَأْنُكِ وحالُكِ معَه؟ فقالتْ: ردَّ اللهُ كيدَ الكافرِ -أو الفاجِرِ- في نَحرِه، أي: صَرَفَه وأذَلَّه، فلمْ يَصِلْ إلَيَّ بِشَيءٍ، وأعْطانا هاجَرَ خادمةً. الدرر السنية

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾﴿64﴾

(فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) أي: فرَجَعوا إلى أنفسِهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ. موسوعة التفسير

قال ابن جزي: (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ أي: رجَعوا إليها بالفكرةِ والنظرِ، أو رجَعوا إليها بالملامةِ).

وقال الشوكاني: (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ أي: رَجَع بعضُهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِعِ عن حُجَّتِه، المتفطِّنِ لصحَّةِ حُجَّةِ خَصمِه المراجِعِ لعقلِه).

قال الرسعني: (إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أي: الواضِعونَ العِبادةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ حيث عبدتُم جَمادًا لا يَعقِلُ، ولا يَنفَعُ ولا يَدفَعُ. وهذا قَولُ ابنِ عبَّاسٍ وعامَّةِ المفَسِّرينَ).

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾﴿65﴾

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) أي: ثم عادُوا إِلَى جهلِهم وعِنادِهم، ورَجَعوا عن الاعترافِ بالحقِّ إلى الباطلِ، وإلى المكابرةِ والانتصارِ للأصنامِ، فقالوا: أنت تعلمُ أَنَّ هؤلاءِ الأصنامَ لا تنطِقُ، فكيف تأمرُنا بسؤالِهم، ما تريدُ إِلَّا التَّنَصُّلَ مِن جَريمَتِك. موسوعة التفسير

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾﴿66﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ظَهَرت الحُجَّةُ عليهم، أخَذَ يُقَرِّعُهم ويوَبِّخُهم بعبادةِ ما لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ، ثمَّ أبدى لهم التضَجُّرَ منهم ومِن مَعبوداتِهم

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ) أي: قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقَومِه ومُنكِرًا عليهم: أفتَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُكم شيئًا فترَجونَها، ولا تَضُرُّكم شيئًا فتَخشَونَها؟ وقد عَلِمتُم أنَّها لم تمنَعْ نَفسَها مِمَّن أرادها بسوءٍ، ولا تقدِرُ أن تنطِقَ إن سُئِلَت عمَّن يأتيها بسوءٍ فتُخبِرَ به، فلمَ تَعبُدونَ ما كان هكذا. موسوعة التفسير

قال السمعاني: (معناه: لا ينفعُكم إن عبدتموه، ولا يضرُّكم إن تركتُم عبادتَه).

﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾﴿67﴾

(أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: قُبْحًا لكم ولأصنامِكم، وما أخسَّكم أنتم وما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (في هذا تحقيرٌ لهم ولمعبوداتِهم).

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أي: أفليست لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها قُبحَ ما تفعَلونَ مِن عبادتِكم أصنامًا لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ولا تستَحِقُّ العبادةَ؛ فتَتركوا عبادتَها، وتَعبُدوا اللهَ الذي بِيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ. موسوعة التفسير

فلما لم تقم لهم حجة عدلوا عن الجدل والمناظرة وعمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم، ويخفون بها باطلهم

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾﴿68﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا نَبَّه إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه على قَبيحِ مُرتَكَبِهم، وغَلَبَهم بإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، لَاذُوا بالإيذاءِ له، والغَضَبِ لآلِهتِهم، واختاروا أشَدَّ العذابِ، وهو الإحراقُ بالنَّارِ.

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) أي: قال المشرِكونَ: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ انتِقامًا لأصنامِكم المحطَّمةِ إنْ كنتُم لها ناصرينَ. موسوعة التفسير

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾﴿69﴾

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) أي: فأوقَدوا له نارًا لِيَحرِقوه، فلمَّا ألقَوا إبراهيمَ فيها قُلْنا لها: يا نارُ، كوني بردًا وسلامًا على إبراهيمَ. فأنجاه اللهُ منها، لم يَنَلْه فيها أذًى، ولا أحسَّ بمكروهٍ. موسوعة التفسير

لَمَّا غَلَب إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه بالحُجَّةِ القاهرةِ، لم يجِدوا مَخْلَصًا إلَّا بإهلاكِه، وكذلك المبطِلُ إذا قَرَعَت باطِلَه حُجَّةُ فَسادِه، غَضِبَ على المحِقِّ، ولم يَبقَ له مَفزَعٌ إلَّا مُناصَبتُه والتشفِّي منه، كما فعل المشرِكونَ من قريشٍ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين عَجَزوا عن المعارَضةِ، وقد جرتِ العادةُ بأنَّ المبطلَ إذا أُفْحِم بالدليلِ لجأ إلى ما عندَه مِن القوةِ؛ ليستعملَها ضدَّ الحقِّ. الدرر السنية

اختار قَومُ إبراهيمَ أن يكونَ إهلاكُه عليه السَّلامُ بالإحراقِ؛ لأنَّ النَّارَ أهوَلُ ما يُعاقَبُ به وأفظَعُه، وهي سَبَبٌ للإعدامِ المحضِ، والإتلافِ بالكُلِّيَّةِ. الدرر السنية

كما قال تعالى: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [العنكبوت: 24].

قال الشنقيطي: أمْرُ النَّارِ بأمْرِه الكَونِيِّ القَدَريِّ أن تكونَ بَردًا وسَلامًا على إبراهيمَ يدُلُّ على أنَّه أنجاه مِن تلك النَّارِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: كُونِي بَرْدًا يدُلُّ على سلامتِه مِن حَرِّها، وقَولَه: وَسَلَامًا يدُلُّ على سَلامتِه مِن شَرِّ بَردِها الذي انقلَبَت الحرارةُ إليه، وجاء مُصَرَّحًا به في قولِه تعالَى: فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ [العنكبوت: 24].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ((حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلْقِي في النَّارِ، وقالها مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [آل عمران: 173])).

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾﴿70﴾

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) أي: وأراد المشرِكونَ أن يَكيدوا بإبراهيمَ فخاب سَعيُهم، ولم يحصُلْ لهم مُرادُهم، وجعَلَهم اللهُ هم المغلوبينَ الهالكينَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) [الصافات: 97، 98].

وقال الشنقيطي: (وكونُهم الأسفلينَ واضِحٌ؛ لعُلُوِّه عليهم، وسلامتِه مِن شَرِّهم، وكونُهم الأخسرينَ؛ لأنَّهم خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ، ذلك هو الخُسرانُ المبينُ).

إن قومه أرادوا إحراقه بالنار ولا ذنب له، إلا أنه قال: ربي الله، ولا جرم له إلا أنه حطم أصنامهم وأنكر عبادتهم لأوثانهم، ولكن إعلان التوحيد والجهر بدعوة الناس إليه يقض مضاجع الطغاة المفسدين، ويكدر صفو عيشهم؛ لأنه يخلّص الناس من ربقة استعبادهم، وتنكشف به خفايا أراجيفهم، فيحذر

الناس الوقوع في شراكهم، وينفضون من حولهم، فيذهب الطغاة، ويُحِدُّ الله -عز وجل- من فسادهم، عند ذلك بدؤوا يفكرون كيف يحرقونه لما في قلوبهم من حقد متأجج، علمًا بأن شرارة تكفي لإحراق مدينة بأكملها، ولكنهم أبوا إلا أن تكون نارًا هائلة، فجمعوا حطبًا كثيرًا، وجعلوا ذلك قربانًا لآلهتهم، وبرًّا بمعبوداتهم، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت إن عوفيت لتجمعن حطبًا لحريق إبراهيم.

✉مكثوا مدة يجمعون الحطب حتى ضاق المكان بأكوامه، ثم بنوا حظيرة واسعة أشعلوا النار فيها، فاضطرمت وتأججت واندلع لهيبها واحمرّ حجرها، ثم قيدوا إبراهيم ورموا به فيها وهم له كارهون، ولعذابه مغتبطون فرحون.

✉ألقي إبراهيم -عليه السلام- في النار المستعرة وقبله مفعم بالإيمان، وثقته بالله شديدة، وأمله في النجاة وطيد، لذلك لم تزعزعه النكبات، ولم تزلزله الحوادث، ولم ترعه النار، بل أقبل إليها بصدر رحب ونفس مطمئنة، فلما صار في جوف النار، يخفيه دخانها، ويحتويه لهيبها، ويغلب على صوته زفيرها وشهيقها، تأتي قدرة العظيم، فلم تحرق النار إلا الوثاق -أي الحبل الذي كان مربوطًا به- فصار حرًّا طليقًا، حفظه الله وأنقذه من سعيرها، وجعلها عليه بردًا وسلامًا، فلما خبا وانقشع دخانها وجدوه معافى سليمًا، ورأوه حرًّا طليقًا، فعجبوا لحاله ودهشوا لنجاته، وانصرفوا عنه ناقمين، وتواروا عن أعين الناس خجلين.

✉إنها معجزة الله العظمى التي أنجا الله بها إبراهيم -عليه السلام-، ومع ذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل من قومه كتموا إيمانهم عن القوم خوفًا من الطغاة وحذرًا من الموت، ورجع كيد الطغاة المفسدين في نحورهم، وجعلهم الله من الخاسرين.